# ٥٢ إني والجن و الإنْس في نبأ عظيم

قال رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى :

**( إنّى وَالجِنّ والإنْس فِى نَبَأ عَظِيمٍ :**

**أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِى ، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَاى )** (١)

العبودية لله عزٌّ وشرف ، يأخذ بها العبد خير سيده ، وكلمة العبودية مكروهة عند النفس ؛ لأنها تعنى الذل والهوان ، كما نرى فى عبودية البشر للبشر ، وهو أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن فى عبوديتنا لله العبد يأخذ خير سيده .

ولذلك ، فالصفة التى تميّز بها رسول الله ﷺ فاستحق أن يُسْرى به ، وأن يُعْرَجَ به إلى السماء أنه عبدٌ لله أخلص فى العبودية ، فنال مقام القرب من الله .. قال تبارك وتعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ .. ۝١ ﴾ [ الإسراء ]

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال ( ١٦ / ٤٣٦٧٤ ) ، وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبيهقى فى شعب الإيمان . ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير ( ٤ / ٤٠٥٢ ) .

فهو فى عبوديته لله ، كان فى أعلى درجات الإنعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ فى المعجزة الكبرى التى لم تحدث لبشر قبله ﷺ ، سواء كان رسولاً أو غيرَ رسول ، ولن تحدث لبشر بعده .

فالعبودية عطاء علوى من الله ، فكان سيدنا محمد ﷺ عندما تناهَى فى العبودية لله نال تناهِي الخير ، فقد أخلص ﷺ العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نَمْ ملء جَفْنيك ، فأنا لا تأخذنى سِنَة (١) ولا نوم ، وأنا قيوم (٢) ، وإن احتجتَ منى إلى شىء ما فادْعُنى ، وسأمدُّ لك يد العون بما يناسبك . . فهل فى هذه العبودية لله شىء غير العزة ؟

فأنت كلما ذللتَ للحق سبحانه يُعزك ، فعبوديتك لله تعطى خيرَ الله لك ، والشاعر يقول :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتَفِى بِى بِلاَ مَوَاعِيدَ رَبٌّ
هُوَ فِى قُدْسِهِ الأَعَزُّ وَلَكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أُحِبُّ

فأنت أيها العبد المؤمن تَلْقى الله متى أردتَ ، وإذا أسلمتَ زمامك

---

(١) السنة : نعاس من غير نوم . والسنة : نعاس يبدأ فى الرأس . [ لسان العرب ــ مادة وسن] . يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [ البقرة ] . يقول ابن كثير فى تفسيره ( ١ / ٣٠٨ ) : " أى : لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا تخفى عليه خافية " .

(٢) قال الزجاج : القيوم والقيّام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وعلمه وأرزاقهم . [ لسان العرب ــ مادة : قوم ] .

للإيمان ، فالزمام فى يديك . يكفى أنْ تنوى الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون فى حضرته سبحانه ، سواء كنتَ فى البيت ، أو فى الشارع ، أو فى أى مكان ، وفى هذا منتهى العزة لك .

فما بالك لو حاولتَ لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعَنَت ؟ وكم دونه من الحُجّاب والحراس ؟ ثم بعد ذلك ليس لك أنْ تختار ، لا الزمان ولا المكان ، ولا لموضوع ولا غيره .

أما عبوديتك لله فيكفيك عزاً وكرامةً أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك فالأمر فى يدك فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوى المقابلة قائلاً : الله أكبر . فتكون فى معية الله عز وجل فى لقاء ، تحدد أنت مكانه وموعده ومُدَّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل فى حضرة ربك إلى أن تُنْهِى المقابلة متى أردتَ .

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألا ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الذى تَجْتَوِيهِ  مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ

إذن : فكَبِّر الله تكبيراً وعظّمه والتجىء إليه ، فمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته وأفاض عليه الحقُّ من صفاته وعَصَمه من كيد الآخرين وقَهْرهم .

فعبودية رسول الله ﷺ لربه كانت حيثية الرفعة فى الإسراء والمعراج ، فالعبودية رفعته إلى حضرته تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحق ، وهذا يعنى إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أنْ يُسْرَى به ، وحمل منهج الله أولاً .

فالتفت لربه لفتة أراد أنْ يلفت بها سواه ، فأخلص هو أولاً فى العبودية لله سبحانه وتعالى ، فكان عبداً بحق فاستحق شرف الاتصاف بأنه ﷺ عبد لله

تَحمَّل ما تحمل ، فكان من جزائه أنْ يرتفع إلى مقام الحضرة ، فعُرج به[1].

وهناك أعطاه الله الصلاة لينزل بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذى سعى إليه بالمعراج . إذن : فالنبى تناول ليناول ، وتناول لأنه أخلص العبودية فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أنْ يلتقى بالله ، فليدخل فى الصلاة . فالعبودية لله سيادة والعبودية للبشر ذِلَّة ومهانة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء]

فالمسيح عليه السلام لا يجد غَضَاضة فى أن يكون عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يَشْرُف به ، والملائكة المقربون أيضاً يَشْرُفون بهذا الأمر .

والملائكة المقربون هم الذين لا يعنمون شيئاً عن هذا العالم ، وليس

(١) عرج فى الدرجة والسلم يعرج عروجاً ، أى : ارتقى ، وعرج الشىء : ارتفع وعلا ، وصعد . والمعارج : المصاعد . وقيل : معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها . [اللسان ــ مادة : عرج ] .

لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله ، وهى عبودية ليستْ لمن يستذل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذى يأخذ ، ولكنها للذى يعطى .

والذى يستنكف من هذا لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أنْ يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقرّبون . أما عن عيسى عليه السلام ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [ المائدة ]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [ المائدة ]

فقد عرض عيسى عليه السلام من خلال قوله لربه تعالى المنهج الذى جاء به على الناس جميعاً وبلَّغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد لله وأنه رسوله ، فعيسى عليه السلام مُنزّه عن أنْ يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً ، بل إن أول كلمة نطق بها المسيح عيسى بن مريم وهو فى المهد ، أنه عبد لله ، فقال :

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ مريم ]

فاستهلاله كلامه بعبوديته لله دليل على أنه قد يقال فيه : إنه ليس عبداً،

وأنه إله أو شريك لله ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد لله ؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد ، فإذا سألتهم : ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يسكتون ولا ينطقون بما قاله أبداً ؛ لأن كلامه ينفى معتقدهم .

إن صبياً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد ( **إنى عبد الله** ) ، وكان لا بُدَّ أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تُنسى ، وحَفِظ جنود الله - سبحانه وتعالى - الكلمة التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام ، فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط نريد أن يتضح منطق الإيمان فى عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

والحق سبحانه يفتتح سورة هود ، فيقول تعالى :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾ [ هود ]

إذن : فقد أُحكمَتْ آيات الكتاب ، وفُصِّلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ، وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجودَ معبود ، له أمر وله نَهْى ، والمعبود الذى لا أمرَ له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عبد الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟ وهل مَنْ عبد الشمس تلقّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمرَ لها ولا نَهْى ، وفوق ذلك لا جزاءَ عندها على العمل الموافق لها ، أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج " افعل " و " لا تفعل " لا وجودَ لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليستْ عبادة ، وما دامت العبادة هى طاعة الأمر وطاعة النهى ، فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى ، وإن نظرتَ إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة : من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة الأذى عن الطريق [1] .

وكلُّ حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه ، أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهى عبادة ، فأنت إذا نظرتَ إلى العبادة تجد أنها تتطلب كل حركة فى الحياة ، فلا تَقُلْ : " سأنقطع للعبادة " بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ؛ لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة .

إنْ أردتَ ألاَّ تعمل فى الحياة فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة ، وإذا لم تنتفع بحركة أىِّ عامل فى الحياة فظن تقدر أنْ تصلى ولن تكون لك قوة لتصلى إذن : فالعبادة هى كل حركة تتطلبها الحياة فى ضوء " افعل " و "لا تفعل " فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الألوهية ، وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟

---

(١) عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : " الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون ــ شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " . أخرجه مسلم فى صحيحه ( ٣٥ ) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٩ ) دون : أفضلها ، وأدناها . وإماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم ، والأذى قد يكون أحجاراً ، أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

وما المنهج الذى جئتَ به ؟ وبماذا تأمرنا ؟ وعن أىّ شىء تنهانا ؟

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [ الأنعام ]

فالرب هو المتولّى لإيجاد والتربية ، ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الربُّ والخالق ، وهو الذى يرزق ؛ بدليل أننا حين نسأل أهل الكفر فى غفلة شهواتهم : مَنْ خلق السماوات والأرض ؟ تنطق فطرتهم فيقولون : الله الذى خلق السماوات والأرض .

وهذا أمر قد سجله الحق سبحانه فى قرآنه ، فقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ لقمان ]

هذه المسألة حين يديرها الكافر فى عقله لا يجد أحداً ادعى أو يستطيع أنْ يدَّعى أنه خلق السماوات والأرض فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله لماذا ؟

لأن الإنسان فى تكوينه قد يدَّعى أشياء ليستْ له ، ولكنه لا ينفى أمراً هو صاحبه ، فمخترع أىِّ شىء أو صانعه ، لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أنْ تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ، ولهذا فأنت لا تجد شيئاً يُنتفع به فى الكون ــ مهما كان تافهاً ــ إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومَن الذى اخترعه ، أو اكتشفه ، أو صنعه .

ومثال هذا ما درسناه فى المدارس عن الذى اكتشف الكهرباء ، والذى صنع المصباح الكهربائى ، ومَن الذى طوّره ، وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأتْ فكرة الطيران بعباس بن فرناس [1] ، الذى حاول

إذن : فكلُّ شىء نافع للإنسان فى هذا الكون معروف للناس مَن الذى اكتشفه ، أو صنعه ، أو اخترعه ، فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟

حين نسأل : مَنِ الذى أوجد الشمس ؟ ألاَ يستحق خالقها أنْ نعرف مَنْ هو خصوصاً ونحن نعرف مَنِ الذى اخترع مصباح الكهرباء وأوجده فى حياتنا ؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا يستحق الأمر أنْ نعرف مَن الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟

هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ولم تنطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل ، لا بد أن يكون لها صانع تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذى نراه : سواء فى الضوء ، أو فى

---

(١) عباس بن فرناس أبو القاسم مخترع أندلسى ، من أهل قرطبة ، كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى بن الحكم ( فى القرن التاسع الميلادى ) وكان فيلسوفاً شاعراً له علم بالفلك ، واتّهم فى عقيدته ، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وصنع " الميقاتة " لمعرفة الأوقات ، ومثّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها وأراد تطيير جسمه فكسا نفسه بالريش ومدَّ له جناحين طار بهما فى الجو مسافة بعيدة ، ثم سقط فتأذى فى ظهره لأنه لم يعمل له ذَنَباً " ذيلا " . [ توفى عام ٢٧٤ هـ ]. الأعلام ٣ / ٢٦٤ } .

خصائص هذا الضوء ، أو فى دِقَّة الصنع ، فهى لا تتأخـــر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ولا بُدَّ أنْ صانعها له قوة تتناسب معَ عظمة هذا الخَلْق .

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلّم جميعاً بأن الله هو الخالق والمُوجِد ، وإما أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحدٌ يدَّعى أنه هو الذى خلقها .

فقضية الخَلْق محسومة لله سبحانه ولا يوجد هناك منازع ، فعندما يأتى رسول الله ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، ولم يأْت أحد ويدّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا .

وهذا يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود وقدرة بلا قيود ، وهو الأحقُّ بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة.

ويبرز لنا الحق سبحانه أحقيته تعالى للعبادة وحده دون شريك فى تعديده نِعَمَه على عباده ، وذلك فى سورة النمل ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ النمل ]

فهذا الكون قد أُعِدَّ لك أيها الإنسان ، أَمَا كان يصح أنْ تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخر كلَّ ذلك لك ؟

وقد أبلغك الحق : أنا خلقتُ السماء ، وخلقتُ الأرض والشمس والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أنْ يكون صِدْقاً فلتنفذ ما أمر به الخالق ، وإن لم يكُنْ هذا الكلام صِدْقاً ، فَمنِ الذى خلق إذن ؟

إنْ كان هناك إله غيره سبحانه قد خلق الكون وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يهتم لبيان صِدْق المسألة ، لَمَا كان هذا الآخر يستحق أنْ يكون إلهاً وما دام لم يظهر مُعارِض له سبحانه فهو الخالق ، لأن الدعوى إذا ما صدرتْ من واحد ولم يظهر لها مُعارض فصاحبها هو مَنْ أصدرها إلى أنْ يُوجَد له معارض .

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فيه حياتكم ، فأنبتَ به الحدائق والزروع والثمار ، فهل هو المستحق للعبادة ، أم ما تشركون به من أصنام وأوثان ومخلوقات ؟

ويقول الحق : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ (١) ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [ النمل ]

فالواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسُّه الضراء أنْ يتجه إلى خالقه ،

---

(١) أى : أمــة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكــسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يُكثّرهم غاية الكثرة ويذرأهم فى الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأمماً بعد أمم حتى ينقضى الأجل .

ولقد جعل الله الضراء وسيلةَ تنبيه يتذكَّر بها الإنسان أن له رباً ، وفى هذه اللحظة يجيب الحقُّ الإنسانَ المضطرَّ ، ويُغيثه .

وإذا صنع الله مع المضطرَّ هذا ، فقد يثُوب إلى رُشْده ، ويقول : إن الإله الذى لم أَجِدْ لى مَفْزعاً إلا هو ، لا يصحّ أنْ أنساه ، والمضطر هو الذى استنفد الأسباب المخلوقة لله ، وما دام استنفد الأسباب ولم تنفع ، فعليه أنْ يذهب لمسبِّب الأسباب . والإنسان لا بغشُّ نفسه ، فلا يذهب لصنم ، أو لأىِّ أحد إلا الله ؛ لأنه يعلم أنه وحده القادر على مساعدته وإنقاذه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ المائدة ]

والعقل يستنكر أنْ نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أنْ يصنع الضرَّ للخصوم ، ولا النفعَ لنفسه ، أو لأشياعه وأنصاره ، بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوا بعيسى عليه السلام ، وما مَلَك عيسى عليه السلام أو الحواريون أنْ يضرُّوهم ، ولا استطاعوا أنْ يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم .

يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الأنعام ]

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ النمل ]

ويقول سبحانه : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل]

والكفار لا ينكرون أن الله خلقهم ، وخلق السماوات والأرض ، وخلق كل شيء ، فعند قضية الخلق لا يستطيع أحد أنْ يتكلم ، فلا يستطيع أحد أنْ يدَّعى أنه خلق نفسه ، أو خلق شيئاً فى الكون ، أو أن أحداً غير الله هو الذى خلق ، فالله تعالى بدأ الخَلْق ، أى : خلقنا من عدم ، وما دام خلقنا من عدم ، وكتب علينا أنْ نموت ، فقد أخبرنا بالغيب أنه سيبعثنا مرة أخرى.

الكفار كذَّبوا هذه القضية ، قضية البعث بعد الموت ، وما دام الحق سبحانه قادراً أنْ يخلق من عدم ، والكل يشهد بذلك ، فالذى خلق من لا شيء وعنده أنقاض أو بقايا شيء ، فإرجاع هذا الشيء أهْون من خَلْقه من العدم .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]

وعملية ( أهون ) هذه لا تناسب مقام الألوهية ؛ لأن الأمور عند الله ليس فيها أهون وأصعب ، ولكن هذا تقريب للمعنى فى عُرْف البشر ، فهو سبحانه خلقكم من لا شيء ، وأصبحتم بشراً ، وصار لكم مخلفات موجودة فى الكون .

فحين يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى من هذه البقايا أسهل من أن يخلقكم

من عدم ، كما حدث فى النشأة الأولى ، وهذا بِعُرْفكم أنتم ، فإذا كان الله لم يُعْجزه أنْ يخلقكم من عدم ، فحين يعيدكم من مواد موجودة ، هل يصعب عليه ذلك ؟

وبعد كل نعمة أنعمها الله يكون استفهامه :${ ءإله مع الله }$ ؛ وحين يكرر الحق هذا الاستفهام ، فمعناه أنك لن تستطيع أنْ تجيب بأنَّ هناك إلهاً مع الله فهذه القضية محسومة ، وهى القضية العقدية الأولى .

قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ إبراهيم ]

فهو إله واحد ، نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام فى هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ، لا أنْ تتعاند ، ولا يرتقى بنيان ما إذا كنتَ أنت تبنى يوماً ليأتى غيرك ، فيهدم ما بنيتَ .

لذلك قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ الأنبياء ]

فالإله واحد ؛ لأنه إنْ كان هناك آلهة متعددة كما يقولون ، فيكون هناك مثلاً إله للشمس ، وإله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للماء ، وإله للهواء ، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أنْ يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ، ولَنَشأ بينهم خلاف وشقاق .

يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

[ المؤمنون ]

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات فمن مصلحة الإنسان أن يكون عبداً لإله واحد ، حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس ، أو لإله الهواء ، أو لإله الماء .

فربنا يريد أنْ يُريحنا من الوهم والاضطراب والتردد ، إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحدَ يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يُشرِّعه لنا ، وما دام الحق سبحانه هو الذى يملك السماوات والأرض ، ولم يدّع أحد من خَلْقه أنه يملكها ، وفى السماوات والأرض وما بينهما حياتنا ومُقوِّمات وجودنا ، فهو سبحانه أَولَى وأحقّ أنْ يُعبد .

فادعاء الإنسان شريكاً مع الله هو ظُلْم لنفسه ، فأنت حين تعتقد أن لله شركاء ، فتعبد وتطيع معه غيره تكون قد أتعبتَ نفسك تعب الأغبياء ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الزمر ]

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يُوفّق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أَرْضَى هذا أغضب ذاك .

إذن : فهو عبد مُبدَّد الطاقة ، مُوزَّع الجهد ، مُقسَّم الالتفاتات . أما

العبد المملوك لواحد ، فلا يتلقَّى أمرْ إلا من سيد واحد ، ونَهْياً من السيد نفسه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيْ السجن : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ ﴾ [ يوسف ]

فلو كان تفرُّق هذه الآلهة تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقاطَ قوة ونقاطَ ضعف ، وتفرُّقهم هذا دليل نقص ؛ ولذلك رحمنا الحق سبحانه ــ نحن المؤمنين به ــ بأن أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً .

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غيرَ خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامرَ من جهة أخرى أبداً ، إذن : فقد أرحْتَ نفسك .

- **إياك نعبد :**

وقد جعل الحق سبحانه هذه القضية برُمّتها فى آية نُردِّدها فى كل ركعة من ركعات صلاتنا ، فيقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة ]

فالحق سبحانه حين قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ.. ﴾ قصر العبادة على ذاته الكريمة ؛ لأنه لو قال : نعبدك وحدك ، فهى لا تؤدى المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول : نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا ، ولكن إذا قلتَ " إياك نعبد " وقدَّمْتَ

إياك ، تكون قد حسمتَ الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها .

فالعبادة خضوع لله سبحانه بمنهج " افعل" و" لا تفعل" لذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله ؛ لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شىء فيك ، وتضعه على الأرض عند موضع القدم ، فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله ، ويتم هذا أمام الناس جميعاً فى الصلاة ، لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعاً .

ويستوى فى العبودية الغنىُّ والفقير ، والكبير والصغير ، حتى يطرد كلٌّ منا الكِبْر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعاً ، فيساوى الحقُّ - جلَّ جلاله - بين عباده فى الخضوع له ، وفى إعلان هذا الخضوع .

وهكذا ، فإننا عندما نقول " الحمد لله " فإننا نستحضر موجبات الحمد ، وهى نِعَم الله ظاهرةً وباطنةً . وحين نقول " ربِّ العالمين " نستحضر نِعمَ الربوبية فى خَلْقه وإخضاع كونه .

وحين نستحضر " الرحمن الرحيم " فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وفتح باب التوبة .

وحين نستحضر " مالك يوم الدين " نستحضر يوم الحساب ، وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازينا على أعمالنا ، فإذا استحضرنا هذا كله نقول " إياك نعبد " . أى : أننا نعبد الله وحده . إذن : عرفنا المطلوب منا ، وهو العبادة .

## * الغاية من خلق الجن والإنس :

والحق سبحانه خلقنا فى الحياة لنعبده مِصْداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا

﴿ خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [ الذاريات ]

فعلّة الخلق هى العبادة ، ولقد تَمَّ الخَلْق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً ، ولكن " العلة والمعلول " لا ينطبقان على أفعال الله سبحانه وتعالى ، نقول : ليس هناك علَّة تعود على الله - عز وجل - بالفائدة ؛ لأن الله تبارك وتعالى غنىٌّ عن العالمين .

ولكن العلَّة تعود على الخَلْق بالفائدة ، فالله - سبحانه وتعالى - خلقنا لنعبده، ولكن علة الخلق ليس لأن هذه لعبادة ستزيد شيئاً فى مُلْكه ، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة .

ولكن ، هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أم أنها منهج يشمل الحياة كلها ، فى بيتك ، وفى عملك ، وفى السعى فى الأرض ؟ ولو أراد الله - سبحانه وتعالى - من عباده الصلاة والتسبيح فقط لَمَا خلقهم مختارين ، بل خلقهم مقهورين لعبادته ، ككُلّ ما خلق عدا الإنس والجن .

*** عباد أم عبيد ؟**

والله تبارك وتعالى له صفة القهر ، من هنا فإنه سبحانه يستطيع أنْ يجعل مَنْ يشاء مقهوراً على عبادته ، مصداقاً لقوله جل جلاله : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [ الشعراء ]

فلو أراد الله أنْ يُخضِعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أنْ يشذَّ عن طاعته ، وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه ، فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة . القلب ينبض

ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا ، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً ، والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادةَ لنا فيها .

أشياء كثيرة فى الجسد البشرى ، كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى ، وليس لإرادتنا دَخْل فى عملها ، وما يقع علىّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه ، لا أستطيع أنْ أمنع حدوثه ، فلا أستطيع أنْ أمنع سيارة أنْ تصدمنى ، ولا طائرة أن تحترق بى ، ولا كل ما يقع علىّ من أقدار الله فى الدنيا .

إذن : فمنطقة الاختيار فى حياتى مُحدّدة ، لا أستطيع أنْ أتحكّم فى يوم مولدى ، ولا فيمن هو أبى ، ومَنْ هى أمى ، ولا فى شكلى ، طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح ، أو غير ذلك .

إذن : فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج أنْ أفعل ، أو لا أفعل ، الله - سبحانه وتعالى - له من كل خَلْقه عبادة القهر ، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية ؛ ولذلك خلقنا ، ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه ، فى أنْ نطيعه أو نعصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنتَ تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عما يُغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه ، وليس قهراً ، فإذا تخلّيتَ عن اختيارك إلى مرادات الله فى منهجه ، تكون قد حققْتَ عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى ، وتكون قد أصبحتَ من عباد الله ، وليس من عبيد الله .

فكُلُّنا عبيد لله سبحانه ، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه ، أما العباد فهم الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف ؛ ولذلك فإن الحقَّ جَلَّ جلاله يُفرّق فى القرآن الكريم بين العباد والعبيد .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [ الفرقان ]

وهكذا نرى أن الله سبحانه أعطى أوصاف المؤمنين وسمَّاهم عباداً ، ولكن عندما يتحدَّث عن البشر جميعاً يقول : عبيد . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [ آل عمران ] .

ولكن قد يقول قائل : إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الفرقان ]

الحديث هنا عن العاصين والضالين ولكن الله سبحانه قال عنهم (عباد)

نقول : إن هذا فى الآخرة ،وفى الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى ؛ لأن الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ونصبح جميعاً عباداً لله مقهورين على طاعته ، لا اختيار لنا فى شىء .

*** عباد الرحمن .. والشيطان :**

إن الشيطان لا يدخل مع الله - سبحانه وتعالى - فى معركة ، وإنما يدخل مع خَلْق الله الذين ينسُون الله ويبتعدون عنه ، يقول تبارك و تعالى عن إبليس أنه قال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ سورة ص ]

أى : أنه أقسم بجلال الله وعِزّته ، ومعنى عِزّة الله أنه غنىٌّ عن خَلْقه جميعاً ، لا يحتاج لأحد منهم ، فهو الله ــ بجلال وجمال صفاته ــ قبل أن يوجد أحد من خَلْقه قد خلق هذا الكون وأوجده ، ولم يستعِن بأحد ، ولو آمــن به الناس جميعاً ما زاد ذلك فى مُلكه شيئاً ، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من مُلْكه شيئاً .

وقَسَم إبليس بِعِزّة الله إقرار منه بها ، وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - ما دام لا يزيد مُلْكه ولا ينقص بإيمان خَلْقه ؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار .

ولو أراد اللهُ الناسَ مؤمنين ما استطاع إبليس أنْ يقتربَ من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان ، وكُرْهه له أنْ يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟

لا ولذلك هناك استثناء: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[ص]

أى : أن إبليس لا يستطيع أنْ يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه

، فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد ، إنما يعجز هو كشيطان عن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

فما عليك إلاَّ أنْ تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمى فى حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوىُّ القادر على أنْ يدفع عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ، لأنه لا طاقةَ لك به ولا تدعْهُ ينفرد بك ؛ لأنه إنِ انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغَلَبة.

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله . أى : لا حول [1] : لا تحوّل عن المعصية . ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [ النحل ]

والسلطان إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به. وإما سلطان قَهْر وغلبة يُجبرك على الفعل ، ويحملك عليه قهراً دون اقتناع .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التى تضىء لك وتوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التى تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع ، وإنْ لم تَرَها .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك شيًا من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة

(١) الحـول : الحيلة والقوة أيضاً . قال ابن سيده هو : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف . فكأن القائل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله كأنه يقول : لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله . [ لسان العرب - مادة : حول ] .

والإقناع ولا قوة القهر. والحق سبحانه يوضح أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْت آمنتَ بالله فأنت فى معيته وحفظه ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك.

إذن : الحصن الذى يقينا كيد الشيطان هو الإيمان بالله والتوكل عليه سبحانه ، فعلى مَنْ إذن يتسلط الشيطان ؟

يوضح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [ النحل ]

ومعنى يتولونه أى : يتخذونه ولياً يطيعون أمره ، ويخضعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته ، وهم بسببه أشركوا ؛ لأنه أصبح له أوامر ونَواهٍ ، وهم يطيعونه ، وهذه هى العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته فى أمره ونَهْيه .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ [ النساء ]

والوليُّ للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه ، ومَنْ فعل ذلك فقد أورد نفسه موارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل جانب ، فلا انفلاتَ من مثل هذا الخسران .

والخسران يأتى من أن الشيطان يُقَدّم الوعود الكاذبة لأوليائه ، ويخبرهم بأشياء تسرُّهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [ النساء ]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ .. ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [ البقرة ]

فالشيطان يُوسْوِس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال ، فمالك ينقص ، وويْل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ، لأنه يُورده موارد التهلكة ، والشيطان يقدم أيضاً الأمانى الكاذبة فى الوساوس ( وَيُمَنِّيهِمْ ) .

ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [ الكهف ]

المتفاخر يقول : ما دام الله قد أعطانى فى الدنيا ، وما دامتْ مهمة الله هى العطاء الدائم فلا بُدَّ أنْ يعطينى ربى فى الآخرة أضعافَ ما فى الدنيا ، ذلك أن سعيدَ الدنيا هو سعيدُ الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟

لقد رأى انهيار زراعته ، وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليستْ إلا غروراً :

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [ النساء ]

## فما هو الغرور ؟

هناك " غُرور " بضم الغين . و " غَرور " بفتح الغين . والغُرور - بضم الغين - هو الشىء يُصوَّر لك على أنه حقيقة ، وهو فى الواقع وَهْم .

والغَرور - بفتح الغين - هو مَنْ يفعل هذه العملية ؛ ولذلك فـ " الغَرور " هو الشيطان ؛ لأنه يُزيِّن للإنسان الأمر الوهمى ، ويُزيِّن للناس بعض الأمور ، ويحثّ الخَلْق ليطمعوا فى حدوثها ، وعندما تحدث يجدون أنه لا صوابَ فيها فهى مما زيَّنه الشيطان .

لذلك سمَّى اللهُ الشيطانَ " الغَرور " لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصحّ ولا تحدث ، ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ، ويتهمهم بالبلاهة :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ إبراهيم ]

فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة : لم يكُنْ لى سلطان عليكم ، لا حجة عندى لأقنعكم بعمل المعاصى ، ولا عندى قوة تُرغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصى ، ودعوتُكم فاستجبتم لى .

ويضيف الشيطان مخاطباً أتباعه :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ إبراهيم ]

أى : أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة " يصرخ " تعنى أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبيةً لنداء أو استغاثة .

الشيطان إذن لن ينجد أحداً من عذاب الله ، ولن ينجد أحدٌ الشيطانَ من عذاب الله ، سيتبرأ كلٌّ منهم من الآخر ، وهو بذلك يتملَّص من الذين اتبعوه.

وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [ الحشر ]

فحظُّ الشيطان منك أنْ يُوقِعك فى المعصية ، ثم يتبرأ منك .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ (١) عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ الأنفال ]

فوسوسة الشيطان للكفار كانت فى صورة تضخيم قوتهم ، وأن أحداً لن يغلبهم فى قتالهم ببدر ، وأنه - أى الشيطان - سيناصرهم فى المعركة ويُجيرهم إن حدث لهم سوء ، وقد أخذ الشيطان يُزيِّن لهم أعمالهم ، ويَعِدهم

(١) النكوص : الإحجام عن الشيء . ونكص عن الأمر : أحجم . ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من الخير ، ولا يقال ذلك إلا فى الرجوع عن الخير خاصة . والنكوص : الرجوع إلى وراء وهو القهقرى . [ لسان العرب - مادة : نكص ] .

كذباً بأنه سيجيرهم ويُؤازرهم ، ويعمل على نصرهم ، حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض ، وأصبحوا على مدى رؤية العين .

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴿٤٨﴾ ﴾

[ الأنفال ] .أى : أنه بمجرد التراءى بين المؤمنين والكفار وقبل أن يلتحموا فى المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرَّأ من الكفار ، وجرى بعيداً .

إذن : فالشيطان لا قدرةَ له ولا قوةَ على فِعْل شىء ، وكلّ ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب ، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم ، وما أنْ صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض ، هرب الشيطان وفزع ونكَص على عقبيه ، وأعلن خوفه من الله ؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب .

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ الأنفال ]

لذلك سُمِّى الشيطان أيضاً " الوسواس الخناس " (١) فى قوله تعالى :
﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾
[ الناس ] فالوسواس الخنَّاس هو الذى يُزيِّن لك أفعال الشرّ فى أذنك ، وهو خنَّاسٌ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .

لذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يقول لعباده أن يقولوا التى هى

---

(١) الوسواس الخناس : المتحين للفرص : فساعةَ ضعف النفس ينقضُّ ، وساعة عزيمة النفس ينفضّ ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس ، فإذا ذكروا الله خنس يقول رسول الله ﷺ (( إن الشيطان واضع خطْمَه ( مقدم أنفه وفمه ) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس )) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء ( ٦ / ٢٦٨ ) من حديث أنس بن مالك .

أحسن ، حتى لا يقعوا تحت طائلة الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [ الإسراء ]

لكن ، لماذا نقول : التى هى أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾[الإسراء]

والنزْغُ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى :﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[ الأعراف ]

فإنْ كنتَ منتبهاً له ، عارفاً بحِيَله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك .

لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾ [ الناس ]

أى : الذى يخنس ويختفى إذا ذَكَرْتَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرّتْ عليك حِيَلُه ، واستجبْتَ لوساوسه ، فقد أصبحتَ فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتى خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن ، واختبار لانتباهه ، وحذره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرة بعد أخرى ليُجَرّبه ويختبره ، فإذا كان النَّزْغُ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتى هى أحسن فإنك لا تعطى

للشيطانِ فرصةً لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه وهكذا يتحول الخلاف فى المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

ونلاحظ أنَّ نزْغَ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ دينى عقدىّ ، بل إنه ينزغ بين الإخوة والأهل والأحِبّة ، ألم يَقُلْ يوسف عليه السلام :

﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ﴾ [ يوسف ]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم وأنت تستطيع أنْ تميز بين الخَيّر والشرير ، ، فتجد الخَيّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون الأشياء ، على عكس الشرير ، فتراه يهدد بأهون الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قول أحد إخوة يوسف : ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا .. ٩ ﴾ [ يوسف ] ، فقال الآخر ، وكان أميل إلى الرفق به : ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ .. ١٠ ﴾ [ يوسف ] ، فقد اقترح هذا الاقتراح وفى نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ .. ١٠ ﴾ [ يوسف ] ، وهكذا تضاءل الشر فى نفوسهم .

ثم يقول سبحانه و تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [ الإسراء ]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم - عليه السلام - فهى عداوة مُسْبقة ، قال عنها الحق سبحانه وتعالى مخاطباً آدم عليه السلام :

﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [ طه ]

لذلك يجب على الأب كما يُعلّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم ﷺ ويُعلّمه أن خواطر الخير من الله ، وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حذر من خواطره ووساوسه .

وبذلك يُرَبِّى فى ابنه مناعةً إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء ، حتى ترسخ فى أذهانهم .

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن موقف المتقين - الذين هم " عباد الرحمن " - من وساوس الشيطان ونزغاته ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [ الأعراف ]

فإذا ما تذكّروا الله ، وما أعدّه لأهل الإيمان ، فهم يُبصرون الحقيقة الأولى التى ترتفع على كل شىء وهى الإيمان بالله ، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يُكدِّرها حتى تكون خالصة نقية .